



الاحتلال اليهودي – الصهيوني لفلسطين وقيام "إسرائيل" (1897-1948) مراجعة نقدية لمنهجية التدريس والكتابة في موضوع "القضية الفلسطينية"

الدكتور محمد حواش
جامعة السلطان مولاي سليمان
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال
المغرب



مقدمة

شكلت نهاية الحرب العالمية الثانية ظرفية دولية مناسبة لانطلاق حركات تحرر وطنية في مجمل البلدان العربية من السيطرة الاستعمارية، باستثناء فلسطين التي كانت تعيش ساعتها مشهدا مأساويا تمثل في انتقالها الجبري من السيادة الفلسطينية إلى مستعمرة يهودية - صهيونية تحت اسم "إسرائيل". فقد تم في 14 من ماي عام 1948 الإعلان رسميا عن قيام هذا الكيان الاستيطاني على أرض فلسطين، ونال اعترافا فوريا من قبل الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الأمريكية، ثم قبل في السنة الموالية عضوا كامل العضوية في هيئة الأمم المتحدة. أما الفلسطينيون، أصحاب الأرض الشرعيين، فقد تعرضوا للطرد والتشريد، وتحول جلهم إلى لاجئين داخل البلدان العربية وخارجها. ومن بقي منهم داخل الكيان الإسرائيلي، تحول إلى أقلية دينية وعرقية ومواطنين من الدرجة الثانية تحت اسم «عرب إسرائيل».

وهكذا، في وقت قصير لا يتعدى خمسين سنة، انتقل المشروع الاستعماري الذي رسمه المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بال بسويسرا سنة 1897م إلى حقيقة ملموسة سنة 1948م. تمثل هذا المشروع في اعتماد خطة استيطانية من طراز فريد؛ تم بمقتضاها تحويل فلسطين من أرض عربية، يشكل فيها اليهود أقلية أقل عددا حتى من الأقلية المسيحية، إلى مستعمرة يهودية - صهيونية. ولتحقيق هذا الهدف الاستراتيجي، وظفت وسائل مختلفة؛ بدأت بالمؤامرة والاحتلال، وانتهت بالإبادة والطرد الجماعيين لأهل الأرض الشرعيين. ونفذت هذه الخطة الاستيطانية بدعم ومؤازرة من الإمبراطوريات الاستعمارية الكبرى وفي طليعتها إنجلترا، صاحبة وعد بلفور الصادر سنة 1917، وبتدبير محكم من المنظمة الصهيونية العالمية ومختلف المؤسسات التابعة لها. إلا أنها تغذت من حالة الضعف والتجزئة التي كانت تعاني منها الأمة العربية والمسلمون عموما؛ حيث كانت أغلب بلدانهم ترزح، هي بدورها، منذ مدد متفاوتة، تحت طائلة الهيمنة الاستعمارية بشتى أشكالها ومسمياتها.



وغني عن القول، إن إقامة هذا الكيان الاستعماري على أرض فلسطين وتهديده المباشر لأمن ومستقبل الدول العربية وتسببه في اندلاع عدة حروب، فرض حالة من عدم الاستقرار السياسي والأمني فيما أضحى يعرف بـ«الشرق الأوسط»، واستنزفت بسبب ذلك طاقات بشرية واقتصادية باهظة الثمن. فكيف استطاع اليهود، المنضوون تحت لواء الحركة الصهيونية، أن يجسدوا هذا المشروع الاستيطاني البعيد المنال على أرض الواقع، ويرغموا أصحاب الأرض الشرعيين من الفلسطينيين على العيش في المخيمات والملاجئ؟

درجت أغلب الدراسات والأبحاث التي اشتغلت على هذا السؤال بالإجابة عليه تحت عناوين وتصورات منهجية لاتخدم بالدرجة الأولى ما يسمى بـ"القضية الفلسطينية" بقدر ما تخدم الاحتلال اليهودي - الصهيوني لفلسطين. لهذا السبب، خصصنا هذه المداخلة لمراجعة وتصحيح ما نعتبره عناوين خاطئة ومضللة وعيوبا منهجية في الكيفية التي تعالج بها هذه المادة على مستوى التدريس بمختلف أسلاكه، والتي تطل في مرحلة تالية الكيفية التي يتم على ضوءها البحث والكتابة في هذا الموضوع.

I- اختلاق العناوين الخاطئة والمضللة :

ففيما يخص النقطة الأولى المتعلقة بالعناوين الخاطئة والمضللة التي ندرس تحتها، عادة، موضوع فلسطين في علاقته بالاحتلال اليهودي - الصهيوني، نلاحظ أنها لا تستوفي، دائما، شروط التوصيف العلمي الدقيق لعناصر الموضوع قيد المعالجة، فتترتب على ذلك نتائج منهجية عكسية عندما لاتسعف الدارس أو الباحث في النفاذ إلى صلب الإشكالية والإجابة عليها بما يمكن الطرفين من تحصيل فهم سليم لهذا الموضوع.

وجذير بالذكر أن مثل هاته العناوين، وهي من قبيل: القضية الفلسطينية، والصراع العربي - الإسرائيلي، والدولة العبرية، وفلسطين التاريخية، قد تم اختلاقها والترويج لها عنوة وبإصرار من قبل



دوائر علمية وإعلامية متخصصة داعمة للكيان الإسرائيلي قصد تضليل الرأي العام المحلي والدولي بشكل منهجي ومدرّوس، كما بين ذلك الباحثان اللسانيان جورج أورويل (George Orwell) ونعوم تشومسكي (Noam Chomsky) في عدد من الحالات المشابهة¹، حتى يتسنى لهم إضفاء طابع التجذر والاستمرارية على هذا الكيان المصطنع في المنطقة ومنحه، بعد ذلك، صفة الدفاع المشروع عن النفس ضد حشد من الدول العربية المحيطة به. لكي يختفي، جراء ذلك، الوجه الحقيقي لواقع استعمار هو أشد وأدهى من كل أنواع الاستعمار التي شهدتها عدد من بلدان العالم خلال الفترة الحديثة. وحتى نتمكن من إدراك حجم الخطورة التي تمثلها هذه العناوين، الخاطئة والمضللة، نعرض لكل واحدة منها على حدة.

1- القضية الفلسطينية:

لا أحد يجادل في أن عبارة "القضية الفلسطينية" تحتل مكانا خاصا في قلوب ووجدان كل من يقدر حجم المظلومية الكبرى التي طالت الشعب الفلسطيني منذ سبعين سنة خلت. لذلك، نصر جميعا على ترديدها، في غير ما مناسبة وبأعلى صوتنا، دفاعا على حق إخواننا الفلسطينيين في استعادة أرضهم وتحقيق استقلالهم. لكن، يجب أن ننتبه أيضا إلى أن هذه العبارة لا تحتفظ دائما بهذا المعنى الإيجابي ذو البعد الإنساني. فعندما نتناول بالدرس والتحليل ما هو في واقع الأمر محض احتلال تحت هذا عنوان غامض وملتبس مثل هذا، فإننا نخرجه، ومن حيث لاندري، من مجاله الطبيعي وهو الاحتلال اليهودي - الصهيوني لهذا البلد؛ لأن الأمر يغزو، بمجرد ذكر لفظة "قضية"، متعلقا بخلاف

1 تشكل مثل هذه العناوين مثالا حيا على ما يسميه الباحثان اللسانيان جورج أورويل (George Orwell) ونعوم تشومسكي (Noam Chomsky) بـ «newspeak» أو «Novlangue» الذي يتم توظيفه بشكل قوي ومكثف لتمرير مشاريع وخطط تخدم مصالح جهة معينة، موظفة في ذلك العلاقة القوية التي أضحت تربط بين علم اللسانيات والبرمجة اللغوية العصبية بهدف التأثير القوي والمباشر على الرأي العام في موضوع من المواضيع. لمعرفة المزيد، أنظر:

Domnique Breton, Parlez –vous novlangue ? Du fromatage des esprits en français et en espagnol contemporains, [Http:// journals.openedition.org/babel/2537](http://journals.openedition.org/babel/2537) ou les enjeux d'une rupture entre mot et chose



أو نزاع بين طرفين هما، من الناحية النظرية، على نفس القدر من الاعتبار السياسي والقانوني، بما يفيد، مبدئياً، بتساوي الحقوق السياسية والقانونية بينهما. وهكذا، يغيب، ولو مؤقتاً، الوجه الاستيطاني الاستعماري لإسرائيل في فلسطين، وينحصر الأمر في مجرد معالجة وتدبير خلاف داخلي بين مجموعتين يفترض أنهما يعيشان منذ أمد بعيد على أرض واحدة ويتمتعان بنفس الحقوق.

ولهذا، نقول إن توصيفا مثل هذا يفضي، في مجال التداول العام، إلى نتائج مغلوطة، ويخدم الطرف الغاصب أكثر مما يفيد الطرف الذي ضاعت منه أرضه وأخرج منها ظلماً وعدواناً.

2- الصراع العربي - الإسرائيلي:

إلى جانب هذا العنوان الخاطئ والمضلل، الذي صار دارجا على كل لسان، نصادف عنواناً آخر هو أكثر منه تضليلاً وخطورة، وهو المتمثل فيما نسمعه ونقرأه دائماً تحت عنوان "الصراع العربي - الإسرائيلي". هنا تختفي عبارة "القضية الفلسطينية"؛ لأنها تصبح، حسب هذا التوصيف، قضية قومية تهم كل العرب بمختلف دولهم التي لا تقل عن عشرين دولة. هؤلاء كلهم يوجدون، حسب ما يرمي إليه ظاهر هذا العنوان المغلوط والمضلل، في حالة حرب جماعية مستمرة مع دولة واحدة ووحيدة هي إسرائيل. ومما لا شك فيه أن أي متلق لعنوان مثل هذا سيلفت نظره، منذ الوهلة الأولى، حجم المظلومية التي تطل الطرف الأضعف في معادلة هذا الصراع "اللامتكافئ"، وهو، في هذه الحالة، الطرف الإسرائيلي. لذلك، فالأولى بالدعم والمساعدة، في نظر الكثيرين ممن يجهلون حقيقة ما جرى ويجري على أرض الواقع، هي إسرائيل وليس الفلسطينيين، ما دام أن كل الدول العربية تتولى حماية هؤلاء والدفاع عنهم باعتبارها، حسب العبارة المتداولة، "قضية العرب الأولى".

زيادة على ما في هذا الحكم من ظلم واضح، تضيع أيضاً من جرائه الصورة الحقيقية لواقع الفلسطينيين؛ فعوض صورة اللاجئ الفلسطيني المحروم من كل حقوقه وموارد عيشه، والمنزوي طيلة حياته، جيلاً بعد آخر، داخل المخيمات والملاجئ، يظهر هذا الفلسطيني، حسب مؤدى هذا العنوان، في صورة الطفل المدلل الذي تتولى حمايته والدفاع عنه أكثر من عشرين دولة عربية.



لهذه الأسباب، نجد أن أكثر من يحرص على ترويج مثل هذه العناوين ويتشبت بها هي إسرائيل لما لها من فائدة محققة في ذلك حينما تجعلها، كما نسمع دائماً، في حالة "دفاع مشروع عن حقها في الوجود" أمام حشد من الدول العربية. ولا نحتاج إلى تبيان كم أن حكماً مثل هذا هو مجانب للصواب؛ لأن ما جرى ويجري لحد الآن، يؤكد أن الفلسطينيين هم وحدهم من يتولى الدفاع عن أنفسهم بأبسط الوسائل، وهي الحجارة، أمام كيان هو الأكثر تسلحاً في منطقة الشرق الأوسط برمتها.

3- الدولة العبرية:

أما الملاحظة الثالثة، التي تنضوي في هذا الإطار، فهي تلك المتعلقة بالعبارة التي تحرص عدد من المنابر الإعلامية، مرئية كانت أو مسموعة أو مكتوبة، داخل العالم العربي وخارجه، على ترديدها على أسماعنا حتى أضحت بفعل تكرارها مألوفة وعادية لا يناقش في مدى صحتها أحد. ونقصد بذلك عبارة "الدولة العبرية"، وكأن اسم إسرائيل لا يكفي وحده لشطب اسم فلسطين من الذاكرة بعد أن حلت مكانها على أرض الواقع، فتحرص جهات إعلامية بعينها على استبدالها أحياناً كثيرة بهذه التسمية ذات الحمولة التوراتية الشديدة الأثر والمغزى، مما يوحي للمتلقي أن دولة هذا إسمها لم تنقطع أبداً، كما لا يجب أن تنقطع، عما يدعونه أنه هو "أرض الميعاد". كما توحى هذه العبارة، بالتبع والنتيجة، أن إسرائيل الحالية هي مجرد استمرار طبيعي لهذه الدولة العبرية الطاعنة في القدم مهما اختلفت أسماؤها ومسمياتها. هذا، ناهيك عن أن اسم الدولة العبرية يراد منه أن يوهم المتلقي بامتداد سلطاتها المجالي على مجموع فلسطين الحالية وأكثر فيما تدعيه الرواية الصهيونية بـ "أرض إسرائيل الكبرى" التي لا يعلم أحد، على وجه اليقين، من أين تبدأ هذه الأرض وأين تنتهي؟

هكذا إذا يصبح طابع الاستمرار في عمر هذا الكيان المصطنع، وإن انقطع تاريخ ما يفترض أن يكون هو، حسب الرواية الصهيونية، مملكة داود وسليمان، عليهما السلام، منذ حوالي ثلاثين قرناً، هو القاعدة، ويختفي، بفعل الحمولة القوية والمضللة لهذه العبارة، زمن هذا الانقطاع الطويل ويختفي معه وجود مجموع ساكنة فلسطين الذين لم يغادروا أبداً أرضهم منذ أن عمروها قبل حوالي خمسة



آلاف سنة. فماذا يساوي، بعد هذا، اسم فلسطين الشديد الارتباط بما هو عربي وإسلامي أمام اسم إسرائيل أو الدولة العبرية اللذان يفيدان، على نحو خاطئ ومضلل، الاستمرار والتجذر فيما يزعمونه أنه هو "أرض يهوذا وإسرائيل"؟

4- فلسطين التاريخية:

بعد تمرير هذه الجرعة القوية من الأغاليط والترهات التي يراد منها تضليل المتلقي وقلب الحقائق التاريخية، يأتي القبول الطوعي من قبل هذا المتلقي لنتائجها الحتمية والنهائية ممثلة في واحدة من العبارات التي صارت متداولة في أيامنا هذه، وأقصد بها عبارة "فلسطين التاريخية". وهكذا، تحل عبارة "الدولة العبرية"، التي يفترض أن تكون قد عمرت لوقت قصير ومتقطع مكانا ما في بلاد كنعان ومضى على انقطاعها حوالي ثلاثة آلاف سنة، محل فلسطين التي استمرت عامرة بسكانها الأصليين منذ ما يناهز خمسة آلاف سنة، وكان يفترض أن ترى النور، بصيغتها المعاصرة، أي دولة فلسطين، في التاريخ نفسه مثلها في ذلك مثل مجموع الدول العربية التي أخضعت لنظام الانتداب. ذلك، لأن مصطلح "فلسطين التاريخية" يفيد، بمجرد النطق به، أن هذه الدولة، حتى وإن وجدت تحت أي شكل من الأشكال، قد طواها النسيان وأضحت مجرد ذكرى تاريخية لبلد كان يعرف في وقت من الأوقات بهذا الاسم.

وهكذا، يتبين لنا كيف تتوسل إسرائيل، بعد أن فرضت نفسها بالحديد والنار، بمثل هاته العبارات الملفقة بهدف تهويد الزمان والمكان²، والتخلص من نقيضها المباشر عن طريق إفراغ اسم فلسطين من مدلوله الحي والواقعي، والرمي به في زوايا التاريخ البعيد.

2 حول المنهجية التي اعتمدتها الرواية الصهيونية في محاولتها لتهويد الزمان المكان الفلسطينيين بهدف اختلاق شرعية ما لتبرير قيام إسرائيل الحالية، أنظر: كيث وايتلام، اختلاق إسرائيل القديمة، إسكات التاريخ الفلسطيني، ترجمة سحر الهندي، سلسلة عالم المعرفة، عدد 249،



لهذه الاعتبارات، نقترح الكف عن تناول موضوع فلسطين في علاقته بالاحتلال الإسرائيلي لأرضها تحت هذه العناوين الخاطئة والمضللة، والحرص على تناولها، بدل ذلك، تدريسا وكتابة، تحت عنوان نعتقد أنه هو الأصلح والأسلم من غيره، وهو: **الاحتلال اليهودي - الصهيوني لفلسطين وقيام الكيان الإسرائيلي (1897-1948)**؛ لأن الأمر لا يعدو، في حقيقته، مجرد احتلال أجنبي لأرض فلسطين من قبل جماعة من اليهود ممن آمنوا، اختيارا أو اضطرارا، بالدعاية الصهيونية التي روجت لديهم، بمختلف السبل والوسائل، أن أرض فلسطين هي "الوطن القومي الخالص" لمجموع يهود العالم أينما وجدوا. لذلك، نهجت الحركة اليهودية - الصهيونية، بوصفها حركة استعمارية استيطانية، شكلا غير مسبوق من الاستعمار هو ما يسمى بـ "الاستعمار الإحلالي"³ حسب تعبير المرحوم، عبد الوهاب المسيري، حتى تتمكن من تحقيق هذا الغرض المتمثل في الإفراغ القسري والممنهج لفلسطين من سكانها الشرعيين ليحل مكانهم من شتى أصقاع العالم يهود تحت اسم "إسرائيل" منذ سنة 1948.

II- منهجية الكتابة والتدريس : من الزمن القصير إلى الزمن الطويل

إضافة إلى اختلاق العناوين الخاطئة والمضللة بغية تضليل الرأي العام العربي والدولي، نلاحظ أن تناول ومعالجة موضوع فلسطين في علاقته بالاحتلال اليهودي الصهيوني، يشوبه، في نظرنا، عيب واضح وخطير؛ يتمثل في منهج التناول الذي نعتبره قاصرا من حيث طبيعته عن الإلمام بالكيفية المعقدة والمتشعبة التي مكنت الحركة الصهيونية من الاستفراد بفلسطين قبل سبعين عاما. لأننا نلاحظ أن المنهج السائد لحد الآن في تناول هذا الموضوع، تدريسا وكتابة، لا يخرج عن منطق المدى الزمني القصير عندما يتم حصر تفسير "النجاح" الذي أحرزته هذه الحركة في التوظيف الاستعماري لهذا المشروع الاستيطاني، ثم الترتيبات السياسية والإستراتيجية التي أعقبت الحربين العالميتين، الأولى والثانية، ضمن أجواء ما عرف بـ "الحرب الباردة". فقد هيمن هذا المنظور التفسيري، المرتبط بتطورات

3 المسيري، عبد الوهاب، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، نموذج تفسيري جديد، دار الشروق، القاهرة، ط. 1، 1999



القرنين 19 و20، على جل الكتابات التي تناولت هذا الموضوع؛ فأصبح وجود هذا الكيان الاستيطاني في فلسطين مرتعنا، في نظر الكثير من الدارسين، بالمصالح الغربية الأوروبية ثم الأمريكية والسوفياتية. وفي إطار هذا الفهم، نالت نظرية "الدور الوظيفي" لليهود، والتي قال بها عبد الوهاب المسيري في موسوعته⁴، شهرة واسعة داخل الأوساط الأكاديمية والسياسية على حد سواء.

ونحن، بدورنا، لا يسعنا إلا الإقرار بهذه الحقيقة؛ لأنه من الصعب تصور نجاح هذا المشروع اليهودي - الصهيوني في فلسطين خارج الدعم والمساندة اللذين كان يتلقاهما من قبل القوى الاستعمارية الغربية في صيغتها الماضية والحاضرة مقابل الدور الذي يمكن أن تلعبه هذه الأداة الاستعمارية في تحقيق مصالحهما في المنطقة. لكننا نلاحظ أن انطلاقاً من هذا المشروع وإحرازه ذلك النجاح، ينبغي البحث عنهما، أيضاً، ضمن مدى زمني أطول يتجاوز المتغيرات السريعة التي شهدتها القرنان 19 و20. فقد ارتبط ظهور هذا المشروع في نهاية ق.19، في تقديرنا، بوقائع وأحداث تراكت عبر مراحل سابقة، وكانت بمثابة مهادت ضرورية لإخراجه إلى حيز النظر قبل الانتقال به، لاحقاً، إلى حيز التخطيط والتطبيق. تتمثل هذه المهادت فيما نسطح عليه بـ"المقدمات الخمس الكبرى" التي وفرت للمنظمة الصهيونية العالمية، قبل تأسيسها سنة 1897، شروطاً مثالية لتمرير خطتها الاستعمارية في فلسطين بالذات. وهي مقدمات جرت أحداثها ووقائعها باستقلال تام عن اليهود عامة والحركة الصهيونية على وجه الخصوص، لكنها شكلت شروطاً ضرورية قدمت خدمة كبيرة وغير متوقعة لمشروعهم الاستيطاني في فلسطين.

لكن إذا كانت هذه المقدمات ضرورية لإخراج هذا المشروع الاستيطاني إلى حيز التفكير والنظر، فإن السير به إلى غايته القصوى المتمثلة في احتلال أرض فلسطين، مثل الإضافة النوعية التي تولى التخطيط لها وتنزيلها على أرض الواقع ما أضحي يعرف بـ"المنظمة الصهيونية العالمية"



منذ المؤتمر الصهيوني الأول المنعقد ببال بسويسرا سنة 1897. هذه الإضافة النوعية، هي التي يمكن أن نصلح عليها بـ "المخططات الصهيونية" التي نقل بسببها المشروع اليهودي - الصهيوني في فلسطين من مستوى الإمكان النظري إلى مستوى التطبيق العملي حينما تم الإعلان عن قيام الكيان الإسرائيلي سنة 1948.

وهذا معناه أن الفهم السليم للحيثيات والأسباب التي مكنت اليهود من الاستحواذ على فلسطين واحتلالها، يتطلب الجمع بين هذه المقدمات الخمس الضرورية وتلك المخططات الصهيونية؛ لأنه خارج تلك المقدمات، ما كان بالإمكان تصور ظهور مشروع استيطاني في فلسطين على الأقل في ذلك التاريخ وبذلك الكيفية. كما يجب الاعتراف أن هذه المقدمات الخمس الضرورية مهما بلغت أهميتها وخطورتها، ما كان بإمكانها وحدها تمكين اليهود من ترسيخ أقدامهم في أرض فلسطين من دون الاستغلال الذكي والماكر الذي مارسه هذه الأداة الوظيفية ممثلة في الحركة الصهيونية في تعاملها مع مختلف الأزمات الدولية التي شهدتها العالم طيلة النصف الأول من ق.20.

انطلاقاً من هذا التصور المنهجي، نرى أنه عوض أن تختزل نجاحات هذا المشروع في دور الشرطي أو الدركي، كما ألفنا سماع ذلك في الخطابات العربية والفلسطينية منها على وجه الخصوص، يجب البحث عنها في مدى زمني أوسع يستوعب مستويات التفاعل بين الجماعات اليهودية الوظيفية والمجتمعات الأوروبية بصيغها التاريخية المختلفة، والتي مهدت لقيام الحركة الصهيونية في نهاية ق.19.

تأسيساً على هذا التصور، يجوز لنا القول إن أقصى ما فعلته المنظمة الصهيونية العالمية في سعيها إلى الاستحواذ على فلسطين أنها وظفت في وقت متأخر، لكن بمكر ودهاء، هذه المقدمات الكبرى في تفاعلها مع المتغيرات التي طفحت بها الساحة الدولية منذ الحرب العالمية الأولى حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ووجهتها لصالح مشروعها الاستيطاني الذي بات جاهزاً، من الناحية النظرية، منذ مؤتمرها الأول سنة 1897.



لهذه الاعتبارات، نرى أن معالجة هذا الموضوع ينبغي أن تتم عبر مرحلتين متكاملتين: مرحلة أولى، نعرض فيها لهذه المقدمات الخمس الكبرى الضرورية، ومرحلة ثانية نحاول من خلالها توضيح الكيفية التي تفاعلت بها المنظمة الصهيونية العالمية، باعتبارها مؤسسة استعمارية وأداة رئيسة لتحقيق المشروع اليهودي - الصهيوني في فلسطين، مع المتغيرات الدولية الواقعة في الفترة ما بين انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول سنة 1897م والإعلان عن قيام إسرائيل سنة 1948م، وهذا ما نستخدم عليه بـ"المخططات الصهيونية"، أو الاستغلال الذكي والماكر لمختلف الأزمات الدولية ذات الصلة.

III- المقدمات الخمس الكبرى الضرورية :

تتمثل المقدمة الأولى فيما يمكن أن نسميه بالروابط الدينية والتاريخية المزعومة و"عقيدة العودة". وتتجلى المقدمة الثانية في "عقيدة شعب الله المختار" والعجز الذاتي والموضوعي عن الاندماج. أما المقدمة الثالثة، فتتمثل في الحركة الصهيونية المسيحية و"عقيدة الخلاص البروتستانتية". بينما تتجسد المقدمة الرابعة في الحركات القومية الأوروبية وفكرة "الوطن القومي اليهودي". أما المقدمة الخامسة، فتتجلى في الحركة الاستعمارية و"الدور الوظيفي للحركة الصهيونية".

- المقدمة الأولى: الروابط الدينية والتاريخية المزعومة و"عقيدة العودة"

تكمن أهمية هذه المقدمة في الروابط الدينية والتاريخية التي تدعي الروايتان الاستشراقية والإسرائيلية أنها جمعت، في وقت معين، بين اليهود وفلسطين⁵. فكان من نتائج ذلك أن ترسخت بينهم

5 هنا يجب التنبيه إلى أن القدس أو بيت المقدس، وهي المدينة المقدسة الموجودة في فلسطين، لا علاقة لها بقدس وأورشليم اليهوديتين الموجودتان فعلا في اليمن وليس في فلسطين كما تدعي ذلك الرواية الإسرائيلية لتمير احتلالها لفلسطين باعتبارها، حسب زعمهم، الأرض التي عمرتها قبائلهم وتأسست بها ممالكهم. فقد ظهرت في المدة الأخيرة مجموعة من الدراسات والأبحاث الجادة والرصينة التي عارضت بشدة الروايتين الاستشراقية والإسرائيلية بخصوص العلاقة التي يزعمون أنها جمعت بين اليهود وفلسطين من الناحيتين الدينية والسياسية، خاصة فيما



ذكرى مرورهم بها، الشيء الذي جعل فكرة العودة إليها قائمة بينهم باستمرار مع ما رافق حالة مثل هذه من قابلية مثالية للتوظيف السياسي إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. لهذا السبب، اختيرت فلسطين تحديدا دون غيرها من المشاريع الاستعمارية المتعددة التي عرضت على الحركة الصهيونية في أنحاء شتى من العالم، لتكون هي وحدها "وطنا قوميا" لما يسمونه عندهم بـ "الوطن القومي اليهودي".

فقبل أن يتفرق اليهود عبر نقاط المعمور المختلفة فيما يسمونه عندهم بـ "الشتات"، تدعي الرواية الإسرائيلية، مستفيدة في ذلك فيما سبق أن روجت له السردية الاستشراقية، أن جماعات معينة منهم قد عاشت في فلسطين؛ بدعوى أنهم عرفوا، مثل غيرهم من الشعوب السامية، هجرات متتالية من شبه الجزيرة العربية نحو الشمال، واستقروا في جهات مختلفة من فلسطين التي كان يسكنها قبلهم قبائل سامية أخرى أشهرها اليبوسيون الذين إليهم يعود الفضل في بناء وتعمير أكثر المدن شهرة الآن في فلسطين بما في ذلك القدس نفسها. وإذا كان وجود اليهود بها قد ظل هامشيا لمدة قرون، فإنهم تمكنوا، حسب الرواية الإسرائيلية المبنية على قراءة خاطئة لأسماء الأماكن التي تضمنتها التوراة⁶، من تأسيس كيانات سياسية على عهد داود وسليمان، عليهما السلام، خلال القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد. ثم تعرضت هذه الكيانات، سريعا، للزوال بسبب الانقسام السياسي والغزو الخارجي، لكن استمر وجودهم بفلسطين، وإن بأعداد أقل، مثلهم في ذلك مثل من سبقهم أو لحق بهم من مختلف سكان هذا البلد.

يدعونه من قيام ممالك لهم هناك واتخاذهم مدينة القدس عاصمة لها. فقد بين أكثر من باحث أن الموطن الذي ظهرت به الممالك اليهودية وعاصمتها أورشليم، وما يتصل بذلك كله من هدم للهيكل وأحداث السي وغيرها، هو اليمن وليس فلسطين. أنظر بهذا الخصوص:

- كمال الصليبي: التوراة جاءت من اليمن، ترجمة: عفيف الرزاز، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، 1997.

. فاضل الربيعي: فلسطين المتخيلة، أرض التوراة في اليمن القديم، دار الفكر، دمشق، 2009.

. فاضل الربيعي: القدس ليست أورشليم، مساهمة في تصحيح تاريخ فلسطين، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، 2010.

6 أوضح فاضل الربيعي، بناء على تحريات مصدرة وميدانية، كيف أن الأعلام البشرية والجغرافية التي اعتمدتها الرواية الاستشراقية في كتابة ما تعتقد أنه التاريخ الديني والسياسي لليهود في فلسطين، هي موجودة أصلا في اليمن بما في ذلك أورشليم ويهوذا والسامرة وما يرتبط بها من ملوك وأنبياء وغزو خارجي، روماني وفارسي، وغير ذلك. أنظر: فاضل الربيعي، القدس ليست أورشليم، مصدر سابق.



وسواء أكانت الأرض التي جرت فيها هذه الأحداث هي فلسطين الحالية كما تصر على ذلك الرواية الصهيونية، أم في بلاد اليمن كما بينت ذلك الأبحاث الأخيرة، فمن المؤكد أن فلسطين قد استمرت موجودة، بعد ذلك، بمجموع ساكنتها الأصلية، تحت الاحتلال اليوناني ثم الروماني فالبيزنطي. ثم شهدت فتحا سلميا على عهد الخليفة الراشدي، عمر بن الخطاب، سنة 637/638م. وتلا هذا الفتح، كما هو معروف، هجرات عربية مكثفة تحولت على إثرها فلسطين إلى أرض عربية سكانا ولغة وإسلامية ديناً وثقافة. أما اليهود، الذين كان جلهم قد غادروها منذ تاريخ بعيد، فأضحوا يشكلون فيها أقلية أقل عددا حتى من الأقلية المسيحية.

ما يعنيننا من هذا كله، هو أن الحركة الصهيونية قد وظفت بمكر ودهاء هذه الرواية المزعومة عندما أوهمت أتباعها أن علاقة ما دينية وسياسية قد جمعتهم بفلسطين. لهذا السبب، راهنت المنظمة الصهيونية، منذ البداية، على فلسطين دون غيرها من المشاريع الاستيطانية التي عرضت عليها؛ لأنها هي وحدها القادرة، في نظرهم، على إقناع أكبر عدد من اليهود على الهجرة إليها باعتبارها، حسب عقيدتهم، الأرض التي كتبها الله لهم فيما يسمى عندهم بـ"أرض الميعاد". وهذا ما حاولوا إعطاءه صياغة قانونية معاصرة لتضليل الرأي الدولي العام عندما جعلوا من هذه "السابقة التاريخية" المفترضة مصوغاً شرعياً للاستحواذ على أملاك الغير تحت ذريعة ما يسمونه بـ"الحق التاريخي"⁷.

- المقدمة الثانية: عقيدة "شعب الله المختار" والعجز الذاتي والموضوعي عن الاندماج

إذا كان استقرار اليهود في العالم الإسلامي لم يمنعهم، بوجه عام، من الاندماج في مجتمعاته، فإن عيشهم داخل المجتمعات الأوروبية المسيحية لم يكن دائماً متيسراً بسبب العداء المتبادل بين اليهود والمسيحيين، مما حال دون اندماجهم داخل هذه المجتمعات رغم طول المدة التي قضوها بين ظهرانيها.

7 للوقوف على زيف هذا الادعاء، راجع الكيفية التي ناقشه بها سمير جرجس: المخططات الصهيونية: الاحتلال، التهويد، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، سلسلة الدراسات، رقم 12، بيروت، 1981، صص 6-9. وكذلك كتاب كيث وايتلام: اختلاق إسرائيل القديمة، مصدر سابق.



فبينما كان المسيحيون يتهمون اليهود بقتل المسيح، عليه السلام، وينعتونهم بـ«الشعب قاتل الرب» ويلعنونهم في صلواتهم، ظل اليهود يرفضون الاعتراف بنبوذة المسيح. وهذه الخصومة الدينية هي التي تلخصها الآية الكريمة في قوله تعالى: "وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون"⁸ صدق الله العظيم.

ثم تطعم هذا السلوك الشاذ عند اليهود بانعزاليتهم السكنية في الغيتوات، واشتغالهم بالربا والحرف الذميمة، وممارستهم بعض الطقوس الدينية والعادات الاجتماعية الخاصة في الأكل والزواج والختان والدفن والذبح، وممارساتهم المثيرة مثل «الفطير المعجون بدماء البشر»، ومواقفهم العنصرية من باقي الأجناس والديانات وفقا لمقولة «شعب الله المختار»، وانخراطهم في المنظمات السرية مثل الماسونية والأحزاب المتطرفة مثل الشيوعية، واتهامهم بالتورط في عدد من الخيانات الوطنية⁹.

ما يهمننا من هذا كله، هو أن هذه الممارسات الشاذة التي ألصقت، حقا أو باطلا، باليهود منذ القديم، أدت إلى رفضهم داخل مختلف الدول الأوروبية على المستويين الحكومي والشعبي، وغالبا ما انتهى بهم الأمر إلى الطرد والنفي الجماعيين. وصعوبة اندماجهم هاته هي التي يصطلح عليها في الكتابات الحديثة بـ«المسألة اليهودية» التي استمرت قائمة منذ العصور الوسطى حتى الحرب العالمية الثانية، وبلغت أوجها خلال فترة الحكم النازي لألمانيا في شكل سياسة عنصرية إقصائية¹⁰.

يستفاد مما سبق، أن عجز اليهود، لأسباب ذاتية وموضوعية، عن الاندماج في المجتمعات الأوروبية، جعل فكرة العودة لديهم إلى ما يعتبرونه أرضهم الموعودة، فلسطين، قائمة باستمرار، ولا

8 سورة البقرة، آية 113

9 لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع، أنظر عبد الوهاب المسيري: الإيديولوجية الصهيونية، دراسة في حالة اجتماع المعرفة، سلسلة عالم المعرفة، عدد 60، ج. 1، شتبر 1982

10 استندت هذه السياسة العنصرية على حزمة من القوانين التي أصدرتها السلطات النازية سنة 1935، واشتهرت تحت اسم قوانين نوربورغ.



ينقصها لتنتقل من حيز الاعتقاد إلى حيز التطبيق سوى الوسائل المناسبة للتوظيف والتنفيذ. وغني عن القول إن الفترتين الحديثة والمعاصرة شهدتا ما يكفي من التطورات والأحداث للدفع في اتجاه استغلال هذا الوضع الحرج لليهود إلى أقصى حد ممكن. ومن عجيب الصدف أن أول من سيدشن هذه الخطوة، هو المصلح الديني المسيحي، مارتن لوثر، وأتباعه من بعده. ثم تعزز هذا الموقف أكثر عندما اقترن تحقيقه لدى أتباع المذهب البروتستانتي بعودة «المسيح المخلص» وفق نبوءة «العصر الألفي السعيد»¹¹.

- المقدمة الثالثة: الصهيونية المسيحية و " عقيدة الخلاص البروتستانتية "

ساهم الإصلاح الديني، الذي شهدته أوربا خلال ق.16، في الدعاية والتعريف، بطريق غير مباشر، بالمشروع اليهودي - الصهيوني في فلسطين قبل ميلاد الحركة الصهيونية. وهذا معناه أن المسيحيين البروتستانت قد تصهينوا قبل أن يتصهين اليهود أنفسهم بحوالي أربعة قرون. فبعدما يؤس المصلح الديني، مارتن لوثر، من تمسيح اليهود وتضاييق من ممارساتهم الشاذة ووقف على حجم الخطر الذي يمثلونه بالنسبة لنموذج المجتمع الذي كان يسعى إلى إنشائه، اجتهد في توجيه نداءات متكررة إلى الحكام الأوروبيين طالبا منهم تمكين اليهود من العودة إلى فلسطين باعتبارها، حسب معتقده، أرضهم "الموعودة". كما أن ترجمته للعهد القديم والجديد إلى اللغات الوطنية الأوروبية، ساهم، بقوة غير مسبقة، في التعريف بخصوصية اليهود من الناحيتين الدينية والعرقية.

ومعنى هذا، أن مارتن لوثر كان أول من روج بشكل قوي للأفكار الأساسية التي ستشيد عليها الحركة الصهيونية دعايتها في نهاية ق.19، من قبيل «شعب الله المختار» و «الشعب اليهودي» و «العودة» و «أرض الميعاد». فقد كتب يقول في مؤلفه «اليهود وأكاذيبهم»: «و غريبة الغرائب أننا إلى

11 هالسل، غريس: النبوءة والسياسة، الإنجيليون الجدد في الطريق إلى الحرب النووية، ترجمة محمد السماك، الدار العربية للعلوم، بيروت،

1990، صص. 118-119



اليوم لا نعلم السبب في حلول اليهود بيننا، وأي شيطان جلبهم إلينا. فنحن لم نأت بهم من بيت المقدس¹². وفوق كل ذلك، لا أحد منا يأخذ بحجوزاتهم اليوم ليقيموا عندنا وفي أرضنا، ويمكنهم الانتقال إلى بلدهم في أي وقت يشاؤون"¹³. ثم أضاف: "وإذا هم اختاروا الرحيل عنا، فنحن مستعدون أن نقدم لهم حسن المعونة، حتى نتخلص منهم"¹⁴. وختم كلامه قائلا: "ليت هؤلاء اليهود عندنا يحشرون إلى بيت المقدس، مع من يريدون من بني قومهم الآخرين"¹⁵.

وهكذا، تأسس ما سيسمى، لاحقا، بتيار "الصهيونية المسيحية"؛ فأخذت المطالبة بعودة اليهود إلى فلسطين تنطلق على شكل نداءات قوية من قبل شخصيات مسيحية نافذة في أوروبا الغربية بشكل خاص. واكتسى هذا التيار خطورة أكبر عندما اقترنت هذه العودة لدى أتباع المذهب البروتستانتي بعودة "المسيح المخلص". لهذا السبب، انبرت عدة شخصيات سياسية وفكرية تطالب بتسريع هذه العودة، وتخطط لها طلبا لهذا الخلاص. وفي هذا الصدد كتب راعي الكومونويلث البريطاني، أوليفر كرومويل، يقول: «إن الوجود اليهودي في فلسطين هو الذي يمهد للمجيء الثاني للمسيح»¹⁶. أما البروتستانتي الألماني، بول فلجن، فعبر عن تفاؤله بتحقيق هذا المجيء الثاني بقوله: «إن مما يثبت ذلك (عودة المسيح) العودة الدائمة لليهود إلى بلدهم الذي منحهم الله إياه من خلال الوعد غير المشروط الذي قطعه لإبراهيم وإسحاق ويعقوب»¹⁷. أما اللورد كوبر، فذهب إلى أبعد من هذا عندما قال إنه

12 قد لا تكون هذه هي التسمية نفسها التي تحدث بها مارتن لوثر في كتابه بلغته الأصلية عن القدس باعتبارها المكان الذي أتى منه اليهود حسب قوله؛ لأن هذه التسمية "بيت المقدس" أو "القدس" بقي تداولها محصورا في الأوساط العربية والإسلامية، بينما كان الاسم الذي اشتهرت به القدس أكثر في الكتابات الأوروبية واعتمدته فيما بعد الكتابات الاستشراقية، هو أور شاليم باعتبارها، حسب روايتهم، عاصمة إسرائيل الموحدة.

13 لوثر، مارتن: اليهود وأكاذيبهم، دراسة وتقديم وتعليق محمود النجيري، مكتبة النافذة، القاهرة، 2007، ص. 113

14 هالسل: النبوءة والسياسة، مصدر سابق، ص. 113

15 نفس المصدر، ص. 116

16 نفس المصدر، ص. 120

17 نفسه



"يجب مساعدة الله في تحقيق هذه الخطة الإلهية حول المجيء الثاني للمسيح من خلال تمكين اليهود من العيش في فلسطين المسترجعة"¹⁸. لذلك، فهو يرى، وعلى الرغم من اقتناعه أن «اليهود غلاظ وقلوبهم سوداء، وغارقون في المعصية، ويجهلون اللاهوت، ضروريون بالنسبة للأمل المسيحي في الخلاص»¹⁹.

ويمكن أن نلمس خطورة مثل هذه النداءات منذ وقت مبكر عندما نعلم أن اللورد كوبر هذا قد ساهم بشكل مباشر في فتح أول قنصلية بريطانية في القدس سنة 1839م من خلال الضغوط التي مارسها على عمه اللورد بالمرستون، وزير الخارجية البريطاني، الذي أكد بصورة صريحة أن عليه حماية اليهود الذين يعيشون في فلسطين²⁰.

وقد عبرت الباحثة الأمريكية، غريس هالسل، في كتابها «النبوءة والسياسة» عن هذه الحقيقة التاريخية المتصلة بتيار الصهيونية المسيحية بقولها: «لمدة مائة وخمسين عاما كان المسيحيون [في الدرجة الأولى في بريطانيا وكذلك في مناطق أخرى من أوروبا، وبعد ذلك بدرجة كبيرة في أمريكا] المدافعين الوحيدين عن الصهيونية»²¹. وعلى الرغم من قولها: «لمدة قرن ونصف، لم يحصلوا على دعم من اليهود في حركتهم الصهيونية غير اليهودية»²²، يؤكد السفير الإسرائيلي الأسبق لدى الأمم المتحدة، بنيامين نتنياهو، في خطاب له أمام المسيحيين الصهاينة بتاريخ 6 فبراير 1985، الدور الحاسم الذي لعبته الصهيونية المسيحية في ظهور وتبلور الحركة الصهيونية اليهودية بقوله: «لقد كان هناك شوق قديم في تقاليدنا اليهودية للعودة إلى إسرائيل. وهذا الحلم (...) تفجر من خلال المسيحيين

18 نفسه

19 نفسه

20 نفس المصدر، ص. 121

21 نفس المصدر، ص. 122

22 نفسه



الصهيونيين. إن المسيحية الصهيونية لم تكن مجرد تيار من الأفكار. إن مخططات عملية وضعت فعلا من أجل عودة اليهود (...) لقد قدم المسيحيون عملا طويلا متواصلا وناجحا للصهيونية...»²³.

مختصر القول، إذا كانت نداءات هذه الشخصيات السياسية والفكرية المنبثقة عن تيار الصهيونية المسيحية قد بقيت في أغلب الحالات مجرد حبر على ورق، فقد ترتب عليها لفت انتباه اليهود إلى إمكانية تحقيق بغيتهم في فلسطين، خاصة عندما تأججت النزعة القومية في المجتمعات الأوروبية في القرن 19 وضافت عليهم الأرض بما رحبت.

- المقدمة الرابعة: الحركات القومية في أوروبا وفكرة "الوطن القومي اليهودي"

أما المقدمة الرابعة، فتمثلت في النزعة القومية التي اجتاحت بقوة غير مسبوقة عددا من المجتمعات الأوروبية في القرن 19، وتمخضت عنها حركات سياسية عنيفة وأحيانا متطرفة. اعتمدت هذه الحركات في صياغة نظرياتها في بناء الدولة القومية الحديثة على مقولة «الشعب العضوي» أو ما يعرف بـ"الفولك" (volk) حسب الصيغة الألمانية. ثم اتخذت هذه النظرية شكل عقيدة عنصرية وصلت أوجها من حيث التطرف والعصبية على عهد النظام النازي حينما أصدر قاداته قوانين عنصرية صارمة بهذا الخصوص ضد اليهود وباقي الأقليات العرقية²⁴.

عملت هذه الحركات القومية، انطلاقا من هذه القناعة العنصرية، على "تطهير" أوطانها من "العناصر" التي كانت تعتبرها "دخيلة" على شعوبها "العضوية"، مقدمة بسلوكها ذاك للحركة الصهيونية، التي كانت ساعتها قيد التشكل، نموذجا يحتذى في بناء وطن قومي خاص باليهود ولو تطلب الأمر طرد شعب آخر. وإذا كان المقام لايسعنا للإستطراد في الشهادات الواردة في هذه الباب، فيمكننا أن نقتصر على الإشارة الذكية والمحكمة التي لخص فيها الباحث اللبناني، جورج قرم، الأثر

23 نفس المصدر، صص. 122-123

24 أقصد بذلك ما يعرف بقوانين نوريورغ التي أصدرتها السلطات النازية سنة 1935



الكبير الذي مارسه الحركة القومية الأوروبية - إلى جانب الصهيونية المسيحية- في إثارة الأطماع الصهيونية من جديد في فلسطين حينما قال: "لولا اللاهوت البروتستانتية- بالإضافة إلى الإيديولوجيا القومية لأوربا- لما أمكن قط للحركة الصهيونية أن تلقى أي تأييد لمشروع ما كان يحظى حتى بموافقة الغالبية العظمى من اليهود أنفسهم، وإن لأسباب متباينة بل ومتعارضة. هذا التأييد من جانب البروتستانتية، سيتجدد عندما ستتزعم الولايات المتحدة الأمريكية العالم الحر في عام 1945، [لأنها] ستضع كل وزنها لتمكين إسرائيل من القيام عام 1948، لتكريسها على الصعيد الدولي"²⁵. ثم أضاف مؤكداً: "وبالفعل إن السياسة الأمريكية ليست مشبعة بالأفكار القومية الأوروبية الكبرى فحسب، بل كذلك بالعقيدة البروتستانتية في ثقافتها وفي إيمانها الديني"²⁶ (...) لكن وبصرف النظر عن هذه الأحداث الفاعلة في أعماق الثقافة الأوروبية، وبالتالي في رؤية العالم التي تنتظمها منذ عصر النهضة، فإن رجوع اليهود إلى فلسطين هو إنجاز للنظام القومي للعالم "كمال" العمل البروميتيوسي لأوروبا المسماة بأوروبا "الأنوار": العمل الرامي إلى إعادة بناء العالم القديم، والعودة إلى الجذور، وتجميد التاريخ في "وهم" فحواه أن الأمم وجدت على الدوام في خصوصية ثابتة"²⁷.

- المقدمة الخامسة: الحركة الاستعمارية و"الدور الوظيفي" للمشروع اليهودي - الصهيوني

تتجلى المقدمة الخامسة في الحركة الاستعمارية التي شكلت التعبير الخارجي للنزوع الهيمني لدى القوميات الأوروبية الصاعدة رغبة منها في الاستقواء ضد بعضها البعض في عوالم ما وراء البحار. وكان من بين الوسائل التي تنبعت إليها هذه الدول، مبكراً، مقايضة المشروع الصهيوني في

25 فرم، جورج: أوروبا والمشرق العربي، من البلقنة إلى اللبنة، مشروع حداثة غير منجزة، دار الطليعة، بيروت، 1990، صص. 120-121

26 نفس المصدر، ص. 121

27 نفسه



فلسطين مقابل توظيفه في تحقيق خططها الاستعمارية؛ فانهالت على اليهود، جراء ذلك، عروض سخية طورت لديهم حسا استعماريا فاق نظيره الأوروبي.

ففي الوقت الذي كانت تشتد فيه معاناة اليهود داخل أوروبا القومية ويزاد أكثر وعيهم بمشاكلهم وخصوصيتهم، كانت الحركة الاستعمارية تصوب أنظارها نحو أملاك الدولة العثمانية المحتضرة التي أضحت تنعت بـ"رجل أوروبا المريض"، وفي مقدمة ذلك المشرق العربي. فأضحى هذا الأخير، بسبب ذلك، هدفا استعماريا رئيسا تتصارع من أجله إنجلترا وفرنسا، ناهيك عن روسيا وإيطاليا. هذه الدول الاستعمارية، على اختلاف توجهاتها، كانت مستعدة لمقايضة دعمها للمشروع اليهودي - الصهيوني في فلسطين مقابل توظيفه في خططها الاستعمارية المقبلة.

في هذا الإطار، يقول طوماس كلارك في كتابه "الهند وفلسطين" والصادر سنة 1861: "إن احتلال اليهود لفلسطين تحت الحماية البريطانية هو مسألة حيوية؛ لأنه إذا كانت بريطانيا تعتمد على تجارتها كحجر الزاوية في عظمتها، وإذا كان أقرب مجرى للتجارة وأفضله يمر عبر القارات الثلاث القديمة، وبما أن اليهود يؤلفون شعبا تجاريا جوهريا، فليس هناك أفضل من زرعهم على طول الطريق العظيم للتجارة القديمة"²⁸. أما إدوارد بيتفورد، العضو في مكتب المستعمرات في لندن، فقد كتب يقول في سنة 1845: "إن إقامة دولة يهودية في فلسطين، تكون تحت حماية بريطانيا العظمى، على أن ترفع الوصاية عنها بمجرد أن يصبح اليهود قادرين على الاعتماد على أنفسهم (...) ستضعنا في مركز القيادة في الشرق بحيث نتمكن من مراقبة عملية التوسع والسيطرة على أعدائنا والتصدي لهم عند الحاجة"²⁹.

IV- المخططات الصهيونية : الإستغلال الذكي والماكر لمختلف الأزمات الدولية

28 كلارك، طوماس، الهند وفلسطين، مانشيستر، 1861

29 هالسل، مصدر سابق، ص. 122.



1- إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية: 1897

تمثلت أول خطوة قام بها اليهود بخصوص التخطيط لتحقيق أطماعهم الاستيطانية في فلسطين، في تأسيس ما بات يعرف بـ "المنظمة الصهيونية العالمية" في أعقاب انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول سنة 1897 ببال بسويسرا. فمن الآن فصاعداً، ستشكل هذه المنظمة بمختلف مؤسساتها وأدعائها الآداة الرئيسية والأقوى لترجمة وتنزيل الأهداف الصهيونية على أرض الواقع في هذا البلد، مستغلة في ذلك، كمجال تطبيقي، مجموع الأزمات الدولية التي سيشهدها العالم؛ بدءاً من الحرب العالمية الأولى، التي نقلت المطالب اليهودية في فلسطين من مستوى الاستعطاف الدولي إلى "الاستحقاق الأممي"، ومروراً بنظام الانتداب البريطاني الذي تولى تنفيذ سياسة التهويد في فلسطين، والنظام النازي الذي منح الحركة الصهيونية فرصة غير متوقعة مكنتها من قلب المعادلة السكانية في فلسطين لصالح اليهود، وانتهاءً بالحرب العالمية الثانية التي منحت هؤلاء فرصة المشاركة فيها إلى جانب الحلفاء مما مكّنهم من إحراز خبرة عسكرية وتأيد سياسي دولي غير مسبوقين، ثم الحرب الباردة التي حولت رهانات القوتين العظميتين المقبلتين على الدور الي يمكن أن يلعبه المولود المرتقب فيما بات يعرف بـ "الشرق الأوسط" إلى عروض سخية و منافسة محمومة.

2- خلق حاضنة يهودية في فلسطين:

شكل خلق حاضنة يهودية في فلسطين الهاجس الأول للحركة الصهيونية باعتبارها الشرط الأولي للمطالبة بما يسمونه وطنهم القومي. وقد استخدموا لأجل تحقيق هذا الهدف مختلف أساليب المكر والاحتيايل، وأعانهم في ذلك عدد من الجهات العليا والنافذة التي كانت لها مصلحة مشتركة معهم، مستغلين في ذلك حالة التفكك والانهييار التي كانت تشهدها الدولة العثمانية، صاحبة السيادة الشرعية والقانونية على فلسطين. وهكذا، قفزت أعدادهم بها من حوالي 9.000 نسمة سنة 1839 إلى 24.000 سنة 1882، ثم تضاعف هذا الرقم مرتين سنة 1900 حينما انتقل إلى حوالي 50.000 نسمة،



قبل أن يستقر فيما مجموعه 85.000 قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914، وهو ما شكل، في حينه 12% من العدد الإجمالي لسكان فلسطين، وهو 700.000 نسمة³⁰.

هذا، ناهيك عن الأراضي التي حصل عليها اليهود في شتى أنحاء فلسطين، بدعم وتمويل "سخي" من قبل عدد من أثريائهم من ذوي النفوذ السياسي الكبير في دول استعمارية كبرى مثل إنجلترا وفرنسا، ومنهم على الخصوص موسى مونتفيوري والبارون إدموند روتشيلد³¹. فوصلت مساحة الأراضي التي أضحت بحوزة اليهود في فلسطين، سنة 1914، إلى حوالي 418 ألف دونم، ويتوفرون على 44 مستعمرة زراعية³².

وغني عن البيان الدور الذي لعبته المنظمة الصهيونية العالمية، التي تأسست سنة 1897، في توجيه تيار الهجرة نحو فلسطين، والرفع من وتيرتها؛ لأنها أصبحت تكتسي، هذه المرة، طابعا سياسيا استعجاليا لإقامة "الوطن القومي اليهودي"، مستغلة في ذلك ما تسميه في أدبياتها بـ"المذابح اليهودية" التي حصلت في روسيا وغيرها³³.

3- الحرب العالمية الأولى: من الاستعطاف الدولي إلى "الاستحقاق الأممي"

30 عوض، عبد العزيز محمد: "هجرة اليهود إلى فلسطين وموقف الدولة العثمانية منها 1874-1914"، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد 3، العدد 3، 1973/1974.

*يجدر التنبيه إلى وجود تناقض واضح بين المصادر فيما يخص تطور عدد اليهود في فلسطين قبل سنة 1922 التي شهدت إجراء أول إحصاء رسمي، وخاصة فيما يتصل بسنة 1914 حيث تذهب مصادر أخرى إلى أن عددهم لم يكن يتعدى 55000 فرد، ولا يمثلون إلا 8% من مجموع ساكنة فلسطين.

31 أنظر بهذا الخصوص، مجدي، كامل: آل روتشيلد: المال عندما يخلق دولة من العدم، دار الكتاب العربي، 2008

32 "الهجرة الصهيونية إلى فلسطين"، الموسوعة الفلسطينية، <https://www.palestiniapedia.net>

33 شكل اتهم اليهود باغتيال قيصر روسيا الإسكندر الثاني سنة 1881 وما تلاه من أحداث مشابحة في هذا البلد الذي كانت تقطنه جالية يهودية كبيرة، مناسبة مواتية للترويج للدعاية الصهيونية، خاصة بعد إنشاء المنظمة الصهيونية العالمية سنة 1897.



إذا كانت هذه الحرب قد هددت المشروع اليهودي عند اندلاعها؛ لأنها أوقفت تيار الهجرة الذي كان قد انطلق في اتجاه فلسطين منذ نهاية ق. 19³⁴، فإن نهايتها لصالح إنجلترا وحليفاتها حمل "بشرى" غير متوقعة للأطماع اليهودية في فلسطين. ذلك، أن هذه الأزمة الدولية لم تمكن اليهود من انتزاع وعد بلفور منذ 2 نونبر سنة 1917 فحسب، بل حملت إليهم كذلك "بشرى" تحقيقه على أرض الواقع عندما أنهت بالقوة الحكم العثماني لفلسطين وأوقعتها في قبضة إنجلترا بعد أن دخلتها قواتها في هذه السنة. وتوج كل ذلك بتبني عصبة الأمم سنة 1919 لهذا الوعد، وتحميل إنجلترا مسؤولية تطبيقه على أرض الواقع، وهو الشيء الذي تم فعلا بعد انعقاد مؤتمر سان ريمو سنة 1920 عندما أخضعت فلسطين للإنداب الإنجليزي.

وهكذا، انتقلت الأطماع اليهودية في فلسطين، بسبب هذه الأزمة الدولية، من مستوى الاستعطاف الدولي حينما كان تيودور هيرتزل يتوسل، المرة تلو الأخرى، للسلطان العثماني، عبد الحميد الثاني، كي يسمح لليهود بأن يكون لهم موطن قدم في جهة ما من أرض فلسطين، مقدما بين يديه عروضاً سخية ومغرية³⁵، إلى مستوى "الاستحقاق الأممي" حينما أضحى هذا الوعد يكتسي، بسبب تبنيه من قبل عصبة الأمم المتحدة، صفة الإلزام القانوني. وغني عن القول إن هذا "الإنجاز التاريخي" لم يكن ليتحقق لولا التأثير القوي الذي كان يمارسه رؤوس الحركة الصهيونية العالمية، مثل حايم وايز من وغيره³⁶، على صانعي القرار السياسي في هذا المحفل الأممي المتحيز أصلاً للأطروحة الصهيونية.

34 انخفض عدد اليهود في فلسطين من حوالي 85000 فرد سنة 1914 إلى 56000 فرد خلال الحرب العالمية الأولى. لمزيد من التفاصيل، أنظر: جرجس، مصدر سابق، ص. 19، هامش رقم 15

35 لأخذ فكرة واضحة عن الحوار الذي دار بين السلطان العثماني عبد الحميد الثاني وتيودور هرتزل والذي عرض فيه هذا الأخير ثمناً مغرياً للأراضي التي يمكن أن يقيم فيها اليهود في فلسطين، أنظر: حسان علي حلاق، الدولة العثمانية والحركة الصهيونية، 1897-1919، بيروت، 1978

36 شغل وايز من منصب رئيس المنظمة الصهيونية العالمية بين سنتي 1920-1946، ثم رئيساً للكيان الصهيوني سنة 1949. ويذكر أنه لعب الدور الأول في انتزاع وعد بلفور من بريطانيا سنة 1917.



4- الانتداب الإنجليزي: سياسة التهويد وقلب المعادلة السكانية

لكي يتم تطبيق وعد بلفور في فلسطين، كان لابد من إخراجها من السيادة العثمانية تحت شرعية ما ووضعها تحت إدارة دولة مستعدة لتزيله على أرض الواقع. وهو الشيء الذي تحقق فعلاً عندما قرر مؤتمر سان ريمو المنعقد بإيطاليا سنة 1920 وضع فلسطين تحت انتداب إنجلترا، صاحبة وعد بلفور، مع تحميلها مسؤولية تنزيله ميدانيا عبر توفير الشروط الكافية لخلق "الوطن القومي اليهودي" بهذا البلد. ورغم ذلك، ظلت حظوظ تفويته لليهود ضئيلة طالما استمر الشعب الفلسطيني يشكل فيها الغالبية العظمى وتشغل مختلف فئاته الاجتماعية أهم القطاعات الاقتصادية. فقد ذكر مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني، أن عدد اليهود في فلسطين لم يكن يتجاوز سنة 1920 خمسين ألف فرد يقابلهم حوالي مليون عربي فلسطيني³⁷. لذلك، وجب على دولة الانتداب نهج خطة استيطانية محكمة في مختلف القطاعات، وخاصة منها فتح باب الهجرة اليهودية نحو فلسطين، بهدف إضفاء الطابع اليهودي عنوة على فلسطين. عرفت هذه الخطة باسم "سياسة التهويد" التي ما تزال أطوارها جارية لحد الآن. مارست إنجلترا هذا البرنامج الاستيطاني المكثف، بإمعان وقصدية، طيلة مدة انتدابها على فلسطين، لكن بوحى وتعاون وثيق مع الدراع القوية للحركة الصهيونية ممثلة في الوكالة اليهودية التي كانت بمثابة دولة داخل الدولة، مما وفر، في نهاية المطاف، شروط القوة والغلبة لصالح المشروع اليهودي - الصهيوني على حساب أصحاب الأرض الشرعيين، أي الفلسطينيين.

5- النظام النازي: جيل جديد من المهاجرين اليهود نحو فلسطين

إذا كانت سلطات الانتداب قد فتحت باب الهجرة اليهودية الطوعية نحو فلسطين على مصراعيه باعتبارها الدعامة الرئيسة في سياسة التهويد، فإنها ظلت، رغم ذلك، عاجزة عن توفير العدد الكافي من المهاجرين لإضفاء الطابع اليهودي على هذا البلد. إلا أن صعود هتلر إلى سدة الحكم في ألمانيا منذ سنة

37 مارديني، زهير: فلسطين والحاج أمين الحسيني، دار إقرأ، بيروت، 1986، ص. 31



1933 ونهجه سياسة عنصرية تجاه اليهود، اضطر عددا كبيرا منهم إلى مغادرة ألمانيا في اتجاهات مختلفة كان من بينها فلسطين.

إضافة إلى هذا الظرف الموضوعي، ساهم قادة الحركة الصهيونية بدورهم في تسريع وتيرة هذه الهجرة. فرغم حالة العداء التي كانت مستحكمة بين هذه الحركة والنظام النازي، اضطرتهم مصلحتهما المشتركة إلى الدخول في اتفاق يقضي بمساعدة ألمانيا في التخلص من اليهود الموجودين على أراضيها على أن يتم السماح بتوجيه جزء مهم منهم، رغم إرادتهم، إلى فلسطين، الشيء الذي ترتب عليه بسرعة تحقيق زيادة قوية في أعدادهم بها حينما انتقل في أواسط الثلاثينات إلى حوالي 400 ألف فرد.

وهكذا، نقرأ في الموسوعة الصهيونية أن القادة القادة النازيون ساعدوا "الحركة الصهيونية في مساعيها لتوجيه الهجرة اليهودية إلى فلسطين، وشكل في برلين "مكتب فلسطين لتنظيم هجرة اليهود الألمان"، ولم يعد ممثلو الحركة الصهيونية "يأتون إلى ألمانيا النازية لانقاذ اليهود الألمان، بل لاختيار الرجال والنساء والشباب المستعدين للذهاب إلى فلسطين لكي يصبحوا روادا ويناضلوا ويحاربوا". وحظيت سياسة تشجيع اليهود على الهجرة إلى فلسطين بتأييد هتلر نفسه، وأيدت الحركة الصهيونية استعدادها "لتحرير ألمانيا من يهودها (...)" لقد منحت اتفاقية "همغراه" الحركة الصهيونية سلاحاً قوياً لأنها سمحت بهجرة اليهود الألمان وحدهم إلى فلسطين وتعويضهم. وأما سائر اليهود، فقد كانت أموالهم تصدر بدون أي تعويض. وكان منظمو الهجرة الصهيونيين ينالون، بالتعاون مع النازيين، حصتهم من الفوائد المادية على حساب الأفراد من اليهود³⁸. هكذا تحدثت الموسوعة الصهيونية عن علاقات التعاون التي جمعت بين الحركة الصهيونية والنظام النازي في ألمانيا.

7- الحرب العالمية الثانية: مكاسب صهيونية كبيرة وخسائر فلسطينية غير متوقعة

38 النازية-الصهيونية/ <https://www.palestiniapedia.net>



أدى اندلاع هذه الحرب، وما ترتب عليها من اجتياح ألماني لأغلب دول أوروبا الشرقية حيث كانت توجد أعداد كبيرة من اليهود، إلى جعل هؤلاء تحت التهديد المباشر لآلة القتل النازية، مما اضطرهم إلى الهجرة في اتجاهات مختلفة كان من بينها فلسطين مما جعل أعدادهم هناك تصل، بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، إلى حوالي 650.000 ألف نسمة.

إضافة إلى هذا المكتسب الديمغرافي الهام جدا، منحتهم مشاركتهم الرمزية في هذه الحرب إلى جانب الحلفاء خبرة قتالية وعتادا عسكريين وتعاطفا دوليا، في وقت ألتمت بالعرب عموما والفلسطينيين منهم على وجه الخصوص خسائر فادحة غير متوقعة جراء مراهنتهم على الحصان الخاسر، أي ألمانيا، مما جر عليهم غضب الدول المنتصرة وأضعف موقفهم لديها.

فمن حيث الخبرة العسكرية، يخبرنا الحاج أمين الحسيني أن عدد اليهود الذين دربهم الإنجليز وجندوهم في الجيش البريطاني، بلغ ثلاثة وثلاثين ألف يهودي. نقل هؤلاء المجندون، بمساعدة الإنجليز، كميات من مختلف الأسلحة إلى فلسطين، وقاموا بتوزيعها على مستعمراتهم ومنظماتهم الإرهابية³⁹. وفي سنة 1943، أقنع زعماء الحركة الصهيونية الإنجليز بتأليف فيلق يهودي وإحاقه بالجيش البريطاني. وبعد انتهاء الحرب، عاد أفراد هذا الفيلق إلى فلسطين، ومعهم أسلحتهم الخفيفة⁴⁰. أما التعاطف الدولي، فقد تحصل لليهود بفضل هذه المشاركة العسكرية الرمزية، ونتيجة كذلك للمذابح التي يمكن أن يكونوا قد تعرضوا لها في أوروبا من قبل أجهزة النظام النازي فيما يعرف عندهم بـ"المحرقة".

وهكذا، نجد أن المشروع اليهودي - الصهيوني في فلسطين قد اكتسب بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ليس فقط قاعدة بشرية صلبة، ولكن أيضا خبرة وزادا عسكريين، إضافة إلى التعاطف السياسي من جانب الدول المنتصرة في الحرب، وفي مقدمتها قادة العالم الجدد، وهما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي. هذا، في وقت كان فيه رموز الحركة الوطنية الفلسطينية، مثل الحاج أمين الحسيني،

39 مارديني: فلسطين والحاج أمين الحسيني، مصدر سابق، ص. 311

40 نفسه



قد راهنوا على الطرف الذي خسر الحرب، وهو ألمانيا وإيطاليا واليابان، مما أضعف موقفهم من الناحيتين العسكرية والسياسية.

8- الحرب الباردة: من حليف قوى إلى حلفاء أشد وأقوى

في الوقت الذي كانت فيه الإمبراطوريتان الاستعماريّتان، إنجلترا وفرنسا، تتخفّان من عبء "ممتلكاتهما" الاستعمارية في آسيا وإفريقيا، كانت القوتان العظمتان، الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، تتهيّان لاقتسام التركة الاستعمارية على شكل مناطق نفوذ لتعزيز معسكريهما. ونظرا للموقع الاستراتيجي للمشرق العربي، نجحت الحركة الصهيونية للترويج لدى هذين القوتين للمكاسب الاستراتيجية التي يمكن أن يحصلوا عليها بمجرد قيام دولة يهودية حليفة في المنطقة يشكل فيها مهاجروها امتدادا طبيعيا وجسر عبور نحو منطقة الشرق الأوسط الواعدة بخيراتها المعدنية وموقعها الاستراتيجي. لذلك، لم تتوان العظمتان في دعم المشروع الاستيطاني في فلسطين قبل الإعلان عن تحقيقه النهائي بها بما يكفي من المال والسلاح والاعتراف السياسي⁴¹، مما وفر لليهود دون غيرهم من الفلسطينيين شروط القوة والغلبة اللازميتين لهزم المقاومين الفلسطينيين ومعهم الجيوش العربية الستة التي ستحارب إلى جانبهم في حرب 1948. وتوج كل ذلك باعتراف العظمتين بإسرائيل فور الإعلان عن قيامها.

وفي الأخير، يجدر القول إن هذه المقدمات الكبرى وتلك المخططات الصهيونية ما كان لها أن تفعل فعلها وتمكن اليهود من الاستحواذ على فلسطين، لولا حالة الضعف والتجزئة الاستعمارية التي

41 خلافا لما يعتقدّه الكثيرون، كان الاتحاد السوفييتي من الداعمين الأوائل الكبار للكيان الإسرائيلي قبل إنشائه وبعد أن خرج إلى حيز الوجود، خاصة على مستوى تزويده بالأسلحة المتطورة، وذلك لأسباب متعددة؛ منها أنه كان يعتبر خلق هذا الكيان في فلسطين، سيكون بمثابة "فتح شيوعي" في منطقة كانت تدخل عموما تحت دائرة النفوذ الغربي الرأسمالي. أنظر بهذا الخصوص:

- نجاد الغادري : التاريخ السري للعلاقات الشيوعية الصهيونية، الكاتب العربي، بيروت، 1969.

- محمد أمزون: تاريخ العلاقات الشيوعية - الصهيونية، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1995.



كان يتخبط فيها العالمان العربي والإسلامي. فأسطورة "الدولة العبرية"، التي ما فتئت وسائل الإعلام الصهيونية تروج لها، انتقلت من خيال الصهاينة إلى حيز الوجود بسبب ما أضحى يعانيه الفلسطينيون والعرب عموماً من ضعف وهوان. وإذا كان المقام لا يتسع للتطويل أكثر، فيمكننا الاقتصار على الشهادتين التاليتين للتدليل على حالة الضعف هاته؛ واحدة من مصدر يهودي، وأخرى من مصدر فلسطيني.

أما الشهادة اليهودية، فنقرأها في كتاب "لقاءات مع زعماء عرب"، لصاحبه بن غوريون⁴²، وهو عبارة عن حوار دار بين هذا الزعيم الصهيوني والزعيان القوميان، شكيب أرسلان⁴³ وإحسان الجابري⁴⁴، بسويسرا سنة 1934. فبعد عرضه للنفوذ الذي كانت تمارسه الحركة الصهيونية على القرارات الدولية، وصف بن غورين حالة العرب فقال: "أنتم متفرقون وضعفاء، ومن المحال أن تجمعوا كلمتكم، وإن جمعتم فمن الصعب تنظيم صفوفكم. أنتم أسرى في قبضة الدول الكبرى، ولا حول لكم ولا طول حيالها. والدول العظمى هي معنا، جيوشها وحرابها في خدمتنا، فأنتم مضطرون لقبول مطالبنا"⁴⁵.

أما الشهادة الفلسطينية، فهي عبارة عن مقال كتبه خليل زقوت في جريدة "الزمر" تحت عنوان "على منبر الحرية"، علق فيه على الأسلوب السياسي الذي كانت تعتمد الزعامات الوطنية في تعاملها مع الأوضاع الفلسطينية في علاقتها بالمخطط اليهودي الصهيوني، فقال: "الحمد لله والشكر لله على ما أعطانا الله من زعامة واهية، وهيآت وأحزاب لاهية، ومستقبل مخيف تختفي وراءه كل داهية، ومؤتمرات واجتماعات فاهية، وخطابات عاتية، وصحافة ترتارة غير خافية، ومبادئ في بعض الرجال

42 هو ديفيد بن غوريون، من المؤسسين الأوائل لحزب العمال الإسرائيلي. شغل منذ سنة 1948 منصب رئيس الوزراء في الكيان الإسرائيلي.

43 سياسي ومفكر لبناني. اشتهر بعمله المتواصل والدؤوب لصالح القضايا القومية والإسلامية ومقاومة الاستعمار في المشرق والمغرب.

44 سياسي ومفكر سوري. اشتهر بدفاعه عن القومية العربية ضد القومية الطورانية التركية، شارك في المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس سنة

1913، وشغل مناصب إدارية وسياسية عليا في سوريا خلال العهد الفيصلي وبعده.

45 بن غوريون، دافيد: لقاءات مع زعماء عرب.



متراخية. فالبلاد تجتاز أزمت، والشعب محاط بالمصائب والملمات، والأراضي تذهب من أيدي الوطنيين العرب بمئات الدونمات⁴⁶.

خلاصة واستنتاج:

يستنتج من التفاصيل التي تضمنها المحوران السابقان، أن موضوع فلسطين في علاقته بالاحتلال اليهودي - الصهيوني يتم تدريسه، في الغالب الأعم، في الأسلاك التعليمية الثلاثة، بما في السلك الجامعي، تحت عناوين مغلوبة وخاطئة، ووفق منهجية عاجزة، من حيث طبيعتها، على النفاذ إلى عمق الإشكالية التي أدت إلى وقوع فلسطين تحت طائلة استعمار من نوع خاص، هو الاستعمار الإحلالي، الذي، وخلافا لأنواع الاستعمار الأخرى، يحرص على توفير شروط الدوام والاستمرار على أرض يعتبرها خالصة له وحده دون غيره من أصحاب الأرض الشرعيين من الفلسطينيين. لهذا السبب، اقترحنا عنوانا بديلا نعتقد أنه هو الأصلح من غيره لمعالجة هذا الموضوع. كما استعرضنا الخطوات المنهجية التي يجب، في نظرنا، تتبعها للإلمام بمختلف التطورات الموضوعية والذاتية التي أدت، عبر مدى زمني طويل، إلى قيام الكيان الإسرائيلي على أرض فلسطين منذ سنة 1948.

46 زقوت، خليل: "على منبر الحرية"، جريدة الزمر، عدد 515، 1932/5/12



maarifa-center.com



maarifa2011@ gmail.com



facebook.com/almaarifa.centre